المحاضرة ١٠

الخرافة أو الحكاية على لسان الحيوان : وهي حكاية ذات طابع خلقي تعليمي في قالبها الأدبي الخاصّ بها ، وهي تنحو منحى الرَّمز في معناه اللُّغوي العامّ ، لا في معناه المذهبي فالرَّمز فيها معناه ؛ أن يعرض الكاتب أو الشَّاعر شخصيَّات وحوادث ، على حين يريد شخصيَّات وحوادث أُخرى عن طريق المقابلة والمناظرة ، بحيث يتتبَّع المرء في قراءتها صور الشَّخصيَّات الظَّاهرة الَّتي تشفُّ عن صور شخصيَّات أُخرى تتراءى خلف هذه الشَّخصيَّات الظَّاهرة ، وغالباً ما تُحكى على لسان الحيوان أو النَّبات أو الجماد ؛ ولكنَّها قد تُحكى كذلك على ألسنة شخصيَّات إنسانيَّة تتَّخذ رموزاً لشخصيَّات أُخرى وحكايات الحيوان تنشأ فطريَّة في أدب الشَّعب قبل أن ترتقي من الحالة الشَّعبيَّة" الفولكلوريَّة "إلى المكانة الأدبيَّة الفنّيَّة ، وأدنى صورها في هذه الحالة أن تفسِّر ظواهر طبيعيَّة تفسيراً ميتافيزيقيَّاً أسطوريَّاً على حسب عقائد الشَّعب ، أو تبيّن أصل ما سار بين العامَّة من أمثال ، وحينئذٍ تجري هذه الخُرافات والأساطير الشَّعبيَّة مجرى الحقائق ، ولا يكون لها معنى رمزي في صورته الَّتي تحدّثنا عنها وهي ؛ لا تندرج مثل هذه الأساطير والخُرافات في الجنس الأدبي ، الَّذي نحن بصدد الحديث عنه ، مهما أُجيدت صياغتها الأدبيَّة ، ولكنَّها هي الأصل البدائي لنشأته أمَّا الكلام في أصل نشأتها ، وأيّ الشُّعوب أسبق من غيرها في هذا الجنس الأدبي ففيه خلاف كبير بين الباحثين ...

فيرى بعضهم أنَّها يونانيَّة الأصل ، في صورتها الفنّيَّة ... ويرى آخرون أنَّ الهند أسبق إلى هذه الحكايات من اليونان ... وأخيراً يُرى أنَّ بعض الحكايات المصريَّة

القديمة على لسان الحيوان يرجع تاريخها إلى القرن الثَّاني قبل الميلاد إنَّنا نلحظ في حكايات" كليلة ودمنة "أنَّه غالباً ما ينسى المؤلِّف فيها الرّموز ، فيُطيل الحديث عن المرموز إليهم ، بحيث تنطمس أدوار الرّموز في الحكاية وإلى هذه القاعدة الفنّيَّة العامَّة أضاف" لافونتين "ـ في نقده ونظمه ـ قواعد أُخرى دقيقة فيرى" لافونتين "أنَّ ":الحكاية الخُلقيَّة على لسان الحيوان ذات جزأين ، يُمكن تسميَّة أحدهما جسما والآخر روحاً ، فالجسم : هو الحكاية ، والرُّوح : هو المعنى الخُلقي . "ولكي يُشفَّ الجسم عن الرُّوح لابدَّ من إجادة تصويره تصويراً يُثير كلَّ ما للرُّوح من خصائص ، ولذا حرص" لافونتين "على توافر المتعة الفنّيَّة في حكايته ، بحيث يصوِّر في شعره الأفكار العامَّة من وراء الحقائق الحسّيَّة ، ويجمع هذه الحقائق الدَّقيقة الَّتي تتوارد لتوضيح الفكرة العامَّة ، حتَّى يستطيع العقل أن يحسَّ أفكاره ، ويفكِّر في أحاسيسه ، وبذلك تبرز الأفكار العامَّة من وراء التَّصوير الفنّي واضحة من تلقاء ذاتها وأعظم مَن برع في هذه الحكايات في أدبنا الحديث ، وجارى في فنّه" لافونتين "هو" أحمد شوقي "الَّذي بلغ بهذا الجنس في أدبنا أقصى ما قُدِّر له من كمال حتَّى اليوم ، وقد تطلَّع شوقي إلى تزويد الأدب العربي بهذا الجنس الأدبي على طريقة" لافونتين "الفنّيَّة ، حين كان يكمل دراساته في أوروبا ، وقد والى الجهد في هذا الميدان حتَّى كان خير مَن حاكى" لافونتين "في العربيَّة في جميع خصائصه الفنّيَّة ، وأمام مَن يُريدون المقارنة بينهما في هذا المجال موضوع خصب للدّراسة ... وفن شوقي في هذه الحكاية على لسان الدَّجاج ، ويقصد فيها إلى تنبيه الوعي القومي لدى المواطنين إلى خطر الغفلة والغِرَّة في علاقاتهم بالأجنبي الدَّخيل ، وكانت تلك قضيَّة عصره ، إذ نراه يقول:

بينا ضِعافٌ مِنْ دَجاجِ الرِّيفِ تَخطُرُ في بيتٍ لَها ظَريفِ

إذْ جاءَ هِنديٌّ كبيرُ العُرفِ فَقامَ في البابِ مَقامَ الضَّيفِ

يقولُ : حيَّا اللهَ ذي الوُجوها ولا أراها أبداً مَكروها

أَتيتُكمْ أَنشرُ فيكُم فَضلي يَوماً ، وأقضي بينَكم بِالعدلِ

وكلُّ ما عِندَكمْ حَرامُ عليَّ ، إلَّا الماءُ وَالمِنامُ

فَعاوَدَ الدَّجاجُ داءَ الطَّيشِ وُفتِحتْ للدِّيكِ بابَ العُشِّ

فَجَالَ فيهِ جَولةَ المِليكِ يدعو لِكُلِّ فَرخةٍ ودِيكِ

وباتَ تلكَ اللَّيلةَ السَّعيدة مُتَمَتِّعاً بِدارِهِ الجَديدة

وباتتْ الدَّجاجُ في أمانِ تَحلُمُ بالذِّلَّةِ والهَوانِ

فشوقي في الحكاية يصف الحال ، ويُهيئ في وصفه لحدث بين المخلوقات الضَّعيفة المغترَّة وهذا الدَّخيل القوي المحتال .